جهود الشيخ الحاج مالك سي في الحث على اتباع الهدي النبوي الشريف

الحمد لله الهادي من عباده من يشاء إلى سواء الطريق، حمدا يليق بجلاله وجماله، ثم الصلاة والسلام على الرحمة المهداة، سيد كل عرب وعجم مولانا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أولي النهى.

وبعد: فإن لله تعالى {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا}[1]، رجالا حافظوا على دينه، وشددوا الوثاق على سياجه، بحفظهم سنة نبيه -ﷺ- وحماية آثاره من كل محو وعفو، ومن بينهم **الشيخ الحاج مالك سي**، ذلك الرجل الذي قضى نحبه في الذب عن الدين، وحفظ سنة رسوله الأمين ﷺ.

نعم طبعي للغاية أن يتزيا الشيخ الحاج مالك سي بهذه الحلة المسؤولية العظيمة؛ ذلك لأن حياة عالم لا تخلو من تأثير أيا كان، تلك سنة الله في علماءه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، بيد أن ذلك التأثير قد تتفاوت درجاته من عالم لآخر، إذ كل ميسر لما خلق له، وقد خُلق للدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وفُطر على الإخلاص فيها والصراحة في الصدع بالحق وفق ما أُمر.

هذا، وإن من يبحث في كتابات الشيخ الحاج مالك سي، يلفيها روضة غناء، وحلقة غاصّة بثمار يانعة من أفانين ذات ألوان مختلفة. فعندما نُصوّب النظر إلى مدى اهتمامه بالهدي النبوي والدفاع عن السنة، والحرب ضد البدع المستقبحة، نجده فيها فارس الميدان، وحامل لواء الجهاد.

ولعلنا نقف معكم في هذه الورقة المختصرة على نماذج من كتاباته الكاشفة عن مدى اهتمامه بالسنة النبوية، ودفاعه عنها، وحثه الأتباع على اتباعها واقتفاء آثارها، قولا وعملا، ليتجلى للقارئ جهوده في الحفاظ على الهيكل الديني المؤسس على الكتاب والسنة، وذلك من خلال النقاط التالية:

١. زفرات الشكوى من إهمال السنة وإيثار البدع
٢. زجر المتذرعين بالكشوفات والكرامات لإهمال السنة المطهرة
٣. الحث على اتباع الهدي النبوي والعض عليه.

• زفرات الشكوى من إهمال السنة وإيثار البدع

إن للشيخ الحاج مالك سي أسوة حسنة في الصالحين، فمن رجع البصر إلى كتاباته كرتين يرى أن منهجه الدعوي يستقي استراتيجياته من منهج الأنبياء – عليهم السلام – ذلك أنه يزجر تارة وينصح أخرى {بشيرا ونذيرا }[2]، وإذا ما بلغ السيل الزبى اشتكى إلى الله تبرأة لذمته من كل ممارسة مخالفة، ورجوعا إلى قوله تعالى على لسان سيدنا يعقوب -عليه السلام-: {إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون}[3]. لنركب معا –أيها القارئ- سفينة من سفن شكاياته لنستشعر مدى اضطراب السفينة من شدة شكواه. يقول:

أَلاَ يَا رَسُولَ اللهِ كُلِّي وَجُمْلَتِي فَإِنِّيَ فِي هَذَا الزَّمَانِ غَرِيبُ

[1] سورة الأحزاب/ آية ٢٣
[2] سورة البقرة/ آية ١١٩
[3] يوسف/آية ٨

أُعَانِي حَرَارَاتِ الْفُؤَادِ لِتَنْطَفِي وَقَدْ زَادَ مِنْ ضِيقِ الزَّمَانِ لَهِيبُ
وَلَوْلاَ تَمَنِّى الْمَوْتِ مِنْ فِيكَ مَنْعُهُ تَمَنَّيْتُهُ إِنِّي إِلَيْهِ أَتُوبُ
زَمَانُ أُنَاسٍ فِي إِمَاتَةِ سُنَّةٍ تَمَالَوْا وَبَثُّ الْعِلْمِ فِيهِ عُيُوبُ

فهو-ﷺ- افتتح الشكاية بنداءات الترحم إلى حبيبه المصطفى ﷺ مستغيثا به، مؤكدا له إيمانه بأنه هو رسول الله، وهذا التوكيد يلوح ضمنا إلى قوله تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب}[٥]. ثم بدأ الشيخ يشتكي من غربته ومعاناته، وحق له أن يشتكي ويستغيث؛ إذ قلما يجد لنفسه أترابا ارتقوا إلى رتبته في العمل بالسنة النبوية كما هي، ما جعله يحسّ بالغربة، والأدهى من ذلك وأمرّ هو رؤيته آخرين من بني جنسه يستهينون بها، وعن العلوم يتغافلون بدعاوى لا أساس لها في الدين مستحدثين بدعا ما أنزل الله بها من سلطان.

وكان ذلك الجرح الأليم يمليه كلمات التعوذ بالله من التهاون بشيء من أوامر رسول الله ﷺ، يقول:

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ إِخْلَالِ مَا شَرَطَ الْ هَادِي الشَّفِيعُ عَلَيْنَا خَيْرُ مُؤْتَمَنِ
وَمَا عَلَى الْأَنْبِيَا مِنْ شَرْطٍ اَوْ لَهُمُ أَحَقُّ حَقًّا بِإِيفَاءٍ فَلَا تَخُنِ[٦]

ويرى أن العجب العجاب الداعي إلى الدهشة هو تخلي أهل الزمان عما كان عليه أفضل الخلق –ﷺ- وأصحابه –رضوان الله عليهم أجمعين- وإيثارهم البدع المستحدثة التي لا أصل لها من الدين، يقول:

وَكَيْفَ يُتْرَكُ أَصْلٌ كَانَ شَافِعُنَا عَلَيْهِ مَعْ صَحْبِهِ مِنْ قِلَّةِ الْفِطَنِ
رَبَّاهُمُ كُلَّهُمْ حَقًّا بِهِمَّتِهِ لِذَا لَهُمْ أَفْضَلُ الْأَخْلَاقِ وَالسُّنَنِ[٧]

بل كانت جمرة اللظى التي فجرت في قلبه -ﷺ - قنابل الشكاية تشوُّه صورة الدين في نظر الناس، حيث أصبح العالم الداعية بالقرآن والسنة المطهرة منظورا إليه بنظرة استهزائية، أما المتعالم المبتدع فهو في نظرهم الشخص المقدس، وغيره مجنون جامح. يقول الشيخ شاكيا:

فَصَارَ ذَا النَّهْرُ مَنْ لَمْ يَأْتِ مِنْ بِدَعٍ فَهُمْ يَقُولُونَ هَذَا الْمَرْءُ قَدْ رَعُنَا
وَإِنْ أَشَرْتَ إِلَى تَرْكِ ابْتِدَاعِهِمِ تَكُنْ لَهُمْ هَدَفًا إِيَّاكَ وَالْحَزَنَا[٨]

---

[٤] ديوان الشيخ الحاج مالك سي، بجمع وترتيب الشيخ أبي بكر امبي، ٢٠١٢م. ص٣٨٧
[٥] سورة الحشر/ الآية ٧
[٦] سي الحاج مالك، **إفحام المنكر الجاني**، بخط الشيخ صمب جانج، ص٦٣٩
[٧] المصدر نفسه، نفس الصفحة.
[٨] ديوان الشيخ الحاج مالك، مصدر سابق، ص٤٠٦

عندما ندقق النظر في هذه النماذج التي أوردناها نحس بالغيرة التي تكتنف الشيخَ الحاج مالك، حرصا على دينه وحبا لنبيه ﷺ.

- **زجر المتذرعين بالكشوفات والكرامات لإهمال السنة المطهرة**

لا شك أن الكشوفات والكرامات خوارق أثبتها القرآن والسنة، لذلك نجد الشيخ الحاج مالك سي يثب وجودهما لكن بضوابط محكمة، يقول: **" كما أن للأنبياء المعجزات، فللأولياء كرامة لهم، ولكن بقيدها وهو التقوى، وهي الامتثال والاجتناب، وإن لم تكن التقوى فكل ما ظهر من الكرامات والخوارق فهو استدراج"** [٩] ويقول -أيضا-:

وَالْكَشْفُ حَقٌّ وَلَكِنْ شَرْطُ صِحَّتِهِ وِفَاقُهُ سُنَّةَ الْمُنْجِي مِنَ الشَّجَنِ
وَمَنْ مَضَى كُوشِفُوا لَكِنَّ كَشْفَهُمُ مُوَافِقٌ أَبَدًا مِنْ ظَاهِرِ السُّنَنِ
وَلَا تَرَى الْيَوْمَ كَشْفًا غَالِبًا ثِقَتِي إِلَّا وَخَالَفَ مَا فِي شَرْعِنَا الْحَسَنِ
وَمَنْ يَكُنْ كَشْفُهُمْ تَرْكًا لِمَا أُمِرُوا فَشِينُهُمْ مُهْمَلٌ لَا تُعْجِمَنْ تَهُنِ[١٠]

فهو مع إيمانه بالكشوفات، وإثباته حدوثها لبعض السلف، يرى أن مَعْقلَها الشرعي هو موافقتها السنة النبوية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة امتثاله بالهدي النبوي، والحذر من الخروج عن حظيرة السنة، بالتخلي من كوابيس الخرافات والكرامات الغاشية قلوب العبد، يقول زاجرا هُوَاة الكرامة:

تَطْلُبُ كُلَّ يَوْمٍ الْكَرَامَةْ أَلَمْ تَرُمْ مِنْ قَبْلِهَا اسْتِقَامَةْ
وَرُبَّمَا تَضَمَّنَ اسْتِدْرَاجَا كَرَامَةٌ لاَ تُخْطِئِ الْمِنْهَاجَا

فمن هنا ندرك أن فكر الشيخ الحاج مالك سي جاثم على الاستقامة لا على الكرامة؛ إذ الأولى تهدي إلى الهداية والثانية تقود –غالبا- إلى الضلالة لما فيها من ملابسات نفسانية وشيطانية تزخرف للناظر إليها وجهها فيحسبها حسناء فإذا هي مفروكة في ثياب عروبة.

لهذا، يؤكد الشيخ الحاج مالك سي –في غير ما موضع- أن اقتفاء آثار الحبيب المصطفى -ﷺ- لخير منهاج يستنه المسلم، عملا بقوله تعالى في مخاطبته النبي ﷺ: { ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون}[١١] يقول مشيرا إلى الآية:

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ – قَالَ اللَّهُ جَلَّ– عَلَى شَرِيعَةٍ فَاقْرَأَنْ لِلْخَتْمِ تَسْتَكِنِ
وَبَاطِنٌ لَمْ يُوَافِقْ مِنْ شَرِيعَتِنَا فَاكْتُبْهُ بِاللَّامِ لَا بِالنُّونِ كَالْفَطِنِ

---

[٩] سي الحاج مالك، إفحام المنكر الجاني، بخط سمب جانج. ص٣٨٧
[١٠] سي الحاج مالك، كفاية الراغبين فيما يهدي إلى حضرة رب العالمين، بخط صمب جانج، ص٥٩٤
[١١] سورة الجاثية/ آية ١٨

وَفِي الْخِطَابِ عُمُومٌ لَا تَخُصَّ بِهِ رَسُولَنَا الْمُصْطَفَى الْهَادِي إِلَى الْمُنَنِ[١٢]

وقال –أيضا-:

وَكَمْ بَاطِنٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاطِلٌ إِذَا لَمْ يُوَافِقْ مَا أَتَاهُ حَبِيبُ[١٣]

فهو على الرغم من إيمانه بوجود الكرامة ينهى العمل بها، ويندد المتذرعين بها لإهمال السنة أو للنيل منها أو الاستخفاف بشيء من مبادئ الدين السمحة، وعيا منه بما في عواقبها من مزالق.

لندقق النظر في ترتيبه التسلسلي المنطقي الذي أجراه للكشف عن تلك المزالق يقول:

لاَ يَنْبَغِي تَهَاوُنُ ٱلآدَابِ وَسُنَنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ
مُهَاوِنُ ٱلآدَابِ يُحْرَمُ السُّنَنْ مُهِينُهَا يُحْرَمُ بِالْفَرْضِ الْحَسَنْ
يُحْرَمُ بِالأُخْرَى الَّذِي تَهَاوَنَا فَرْضًا وَكَانَ أَمْرُهُ مُهَاوَنَا[١٤]

خوفا من التهاون بالسنة، وضع الشيخ الحاج مالك خطوطا حمراء أمام الآداب الإسلامية، وهذا من باب الورع، تحذيرا من الاستخفاف بالصغائر التي قد يؤدي إلى التجرئ على ارتكاب الكبائر، والعياذ بالله.

- **الحث على اتباع الهدي النبوي والعض عليه.**

من الواجب على كل مسلم مؤمن بالله ورسوله ﷺ اقتفاءُ آثاره ﷺ، فذلك عين امتثال أمر الله تعالى القائل: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}[١٥] فهو ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة المثالية.

وجهود الشيخ الحاج مالك سي ما فتئت تتعقب تلك الآثار وتدوّنها سعيا إلى ترسيخ هذا الإيمان في قلوب الناس، وقد أكد ذلك بقوله: إن دعاية محبة المصطفى دون العمل بسنته ضرب من العبث، يقول في منظومته خلاص الذهب في سيرة خير العرب:

وَوَاجِبٌ طَاعَةُ الْهَادِي مَحَبَّتُهُ كَذَا ٱتِّبَاعُ الَّذِي يَأْتِي مِنَ الْأُمَمِ
لَهَا الْعَلاَمَاتُ قَالُوا إِنَّ أَعْظَمَهَا ٱسْ تِعْمَالُ سُنَّتِهِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِمَمِ
وَلَيْسَ نَفْعٌ عَلَى حُبٍّ بِلاَ عَمَلٍ وَتَابِعَنْ سُنَّةَ الْمُخْتَارِ تَغْتَنِمِ
وَكَثْرَةُ الشَّوْقِ فِي اللُّقْيَا لِسَيِّدِنَا مِنَ الْعَلاَمَاتِ هَبْ لِي ذَاكَ ذَا الْأُمَمِ
وَكَثْرُ ذِكْرٍ صَلاَةٍ ثُمَّ نُصْرَةُ دِيـ ـنِهِ تَخَلُّقُ مَا قَدْ جَاءَ مِنْ شِيَمِ[١٦]

---

[١٢] سي الحاج مالك، كفاية الراغبين، مصدر سابق، ص٥٩٣
[١٣] ديوان الشيخ الحاج مالك سي، مصدر سابق، ص٣٨٧
[١٤] المصدر نفسه، ص٧٧
[١٥] سورة الأحزاب/ آية٢١
[١٦] سي الحاج مالك، خلاص الذهب في سيرة خير العرب، بخط صمب جانج، ص٨٤

كما يؤكد بأن الاستخفاف بالسنة وادعاء تعظيمها والدوران في حومتها– كما يحدث اليوم- ضدان متناقضان، وقديما قيل: "ضدان لا يجتمعان". يقول:

إِهَانَةُ الشَّيْءِ وَالتَّعْظِيمُ مَا اجْتَمَعَا خَافُوا إِهَانَةَ هَذَا الدِّينِ يَا فُطَنَا
بَدَا غَرِيبًا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ بِهِ وَعَوْدُ غُرْبَتِهِ قَدْ كَانَ مُعْتَلِنَا
كَفَى مِنَ الْقُبْحِ أَنْ لَمْ يَأْتِ فِعْلَهُمُ دِينُ النَّصَارَى يَهُودٍ فَاتْرُكُوا الدَّدَنَا[17]

ويمضي الشيخ الحاج مالك سي في حثه الأتباع على اتباع الهدي النبوي الشريف مشيرا إلى أن الاهتداء في الاقتداء، ومن اقتفى ارتقى، ومن زلّ ضلّ، ومن جانب السنة جانبه الصواب، وتاه في ظلم العتاب. يقول:

فَتُبْ إِلَى اللَّهِ تَوْبًا خَالِصًا حَسَنَا لاَزِمْ حَيَاتَكَ يَا بَاغِي الْهُدَى السُّنَنَا
وَمَنْ أَتَى غَيْرَ مَسْنُونٍ فَقُرْبَتُهُ مَرْدُودَةٌ شَرَّ رَدٍّ كُلَّمَا عَلَنَا[18]

ولم تنقطع سيولة حثه على اتباع الهدى عند سياقاتها الخاصة، بل كانت تفضي إلى سياقات أخرى تحمل أغراضا تأليفية خاصة، لكن حرصه على توجيه الأتباع على اقتفاء السنة جعله يذلل أرضية تلك السياقات لحمل توجيهاته، يقول في سياق حديثه عن قصة الحصار ومدته:

عَامَيْنِ بَلْ قِيلَ "جِيمٌ" كَانَ مُدَّتُهُ وَقِيلَ بَيْنَهُمَا نَهْجَ الْهُدَى اسْتَقِمِ

فهو في سياق حكاية قصة الحصار، لكنه استغل السياق لتنبيه الدارس على أن دراسة سيرة المصطفى فقط ليست هي الغرض النهائي، بل هي وسيلة وإنما الغرض النهائي هو اقتفاء آثاره، وانتهاج نهجه، والاستقامة على الصراط القويم الذي لا اعوجاج فيه.

ومما يسترعي الانتباه هنا أن الشيخ الحاج مالك سي لم يدَعْ سنة عمل بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلا وقد حاول العمل بها، ودعا إليها، وهذا ليس دعاية مني على أنه عمل بكل ما عمل به المصطفى ﷺ، وإنما قصدي بذلك التأكيد على اعتناءه بالسنن العملية، وعدم استهانته بها أيا كانت رتبتها، والأمثال في ذلك كثيرة، غير أننا نقتضب منها بعضا لضيق خناق البحث.

[17] ديوان الشيخ الحاج مالك سي، مصدر سابق، ص٤٠٦
[18] المصدر نفسه، نفس الصفحة

فعند ما نقرأ كتاباته نجده فيها يحث على اقتفاء سنة حمل العصا للبالغ من العمر أربعين سنة، وقد يتساءل مثلي لفهمه القاصر بالدين كيف يحمل عصا شابٌ يافع بالغ في النشوة الشبابية ذروتها، غير أن نظرة الشيخ تتصوب إلى زاوية أرقى من تلك التي ينظر إليها أمثالي، فهو ينظر إليها على أنها سنة فعلها الرسول - ﷺ - بغض النظر عن الاعتبارات الجانبية، يقول:

حَمْلُ الْعَصَا سُنَّةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ مَعًا كُنْ حَامِلاً يَا ابْنَ "مِيمٍ" تَنْأَ مِنْ شَحَمِ

وبنفس التطريز حاك بيتا آخر يقول فيه:

حَمْلُ الْأَذَى سُنَّةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ مَعًا كُنْ حَامِلاً كُلَّ خَيْرٍ صَاحِبِي تَجِدُ[١٩]

ويحث على العمل بسنة تحية المسجد –أيضا-:

لاَ يَجْلِسَنْ أَحَدُكُمْ فِي الْمَسْجِدِ دُونَ تَحِيَّةٍ تَأَمَّرْ وَاقْتَدِ[٢٠]

هذه وغيرها من السنن العملية التي نبه إليها الشيخ الحاج مالك الأتباع على أن لا يغفلوا عنها حرصا على دينهم وعلى هدي نبيهم ﷺ.

هذا، ولعلنا قد وقفنا، خلال هذه الورقة المختصرة، على نماذج من كتابات الشيخ الحاج مالك سي التي تكشف عن مدى تمسكه بالسنة المطهرة ودعوته إليها، وغيرته عليها ودفاعه عنها، ونبذه البدع السيئة المستقبحة وراء اللجج، كما رفعنا اللثام عن مدى فناءه في حب المصطفى ﷺ؛ لأن محبة السنة تستلزم محبة صاحب السنة، ولو افترضنا أنهما شئان غير متلازمين، لاستطعنا الخوض في أغوار كتاباته من جوانب أخرى لاستخراج النماذج التي يترنم فيها بمحبته المصطفى ﷺ، والتي لا يشوبها غرض سواها، لكن الواقع المنطقي يثبت ذلك التلازم المتماسك، فيبقى هذا الأخير موضوعا مستقلا قد يتطرق إليه الباحثون بإذن الله.

الباحث/ شيخ أحمد التجاني ساخُو
المنسق العام لسراج الحضرة المالكية بتواوون

[١٩] ديوان الشيخ الحاج مالك سي، مصدر سابق، ص ٤٠٠
[٢٠] ديوان الشيخ الحاج مالك سي، آداب المسجد